قصة: الوجع

أ.د. مجيب الرحمن *

نظر خليل إلى التقويم الرقمي المعلق على جدار غرفته، يتفقد مواعيده للأسبوع القادم. تجمّد لحظة حين رأى بندا واحدا يضيء باللون الأزرق :عيد ميلاد مريم بعد يومين —ستبلغ الثلاثين في العشرين من يناير عام ٢٠٧٠م.

تنهّد بقلق. فقد وعدها بهديةٍ خاصة، ولم يشترها بعد، بينما جدول أعماله مزدحم بمواعيد لا يمكن تأجيلها. كان يستطيع أن يطلب من مساعدته الآلية "رمان" أن تشتري الهدية نيابةً عنه، لكنها كانت آلة دقيقة تتقن كل شيء، حتى اختيارات القلب، إلا أن كلمات مريم في آخر اتصال بينهما ترددت في ذهنه:

"أريد هدية تختارها بيديك، لا بأوامر تُبرمجها لآلةٍ باردة."

ابتسم خليل ابتسامةً متوترة، لم يدرك أن تلك الجملة البسيطة ستكون بداية رحلةٍ طويلة، ليست عن شراء هدية، بل عن البحث عن معنى الإنسان في زمن الروبوتات.

في المساء، خرج إلى شوارع مدينة نوفا، حيث الأبراج المعدنية تتوهج بوميض أزرق بارد، والشوارع نظيفة تمامًا لدرجة الشعور بالغرابة، والهواء محسوب بدقة. كل شيء يتحرك بانسجام هندسي؛ كل شيء تحت سيطرة "الروبشري"، المساعد البشري الصناعي الذي كان ينجز

* الأستاذ والرئيس السابق، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند.

كل الأعمال بدقة متناهية. لا صخب, لا فوضى, ولا خطأ. المدينة المثالية التي لم يعرفها قلبه قط.

توقّف أمام واجهة متجر ضخم تعرض فيه الروبوتات أحدث المجوهرات والورود الصناعية التي لا تذبل.

قال الروبوت البائع بصوتٍ أنثوي:

"يمكنني اقتراح الهدية الأنسب لشريكتك بناءً على تحليل بياناتها الشخصية".

ابتسم خليل بحزن:

"لا, أريد أن أختارها بنفسي."

ابتسم الروبوت ابتسامة مبرمجة, لكنه لم يقل شيئا.

جلس خليل على الرصيف, يراقب المدينة الصامتة, مسترجعًا زمنًا كانت فيه الأخطاء البسيطة جزءًا من الحياة, الضحك جزءًا من العمل, والحب جزءًا من الخوف. اليوم كل شيء صار دقيقًا, باردًا, محسوبًا, إلا قلبه.

في اليوم التالي تلقى رسالة مشفّرة عبر شبكة قديمة تُسمّى "الويب الحر", كانت محظورة منذ مدة:

"اجتماع للبشر الحقيقيين. الليلة. في مخزن المحطة القديمة".

ذهب خليل مترددًا, وجد خمسة أشخاص متجمعين, وجوههم متعبة وعيونهم تبحث عن نفس الحقيقة: الإنسان لا يمكن استبداله بالكامل. بينهم كانت ليلى, أستاذة فلسفة سابقة,

أغلقت قسمها بعد أن أُعلن أن المنطق الصناعي يحل محل التفكير البشري. قالت بعينين تشعّان بالحزن:

"نحن آخر من يؤمن أن الإنسان ليس آلة. علينا أن نترك أثرًا قبل أن يُعاد ضبط العالم."

تدخل أحد الحاضرين وقال:

"الروبشري يكتب الشعر، يكتب الرواية، ينتج الأفلام، يعزف الموسيقى، يحل المشكلات، يبني المدن، ويضبط الأمن العام، وينتج المصنوعات، ويقود الطائرات والسيارات والسفن لنقل البشر والبضائع، ويشغل الطائرات والسفن الحربية، ويزرع وينتج المحاصيل، ليس هناك عمل كان البشر يقوم به في الماضي، ولا يقوم به الروبوت أفضل من البشر الآن... يعلن الروبشري بما عنده من قوة الوجود: أنتم البشرغير ضروريين، بل إنكم تعثون في الأرض فسادا، وتلوثون الكوكب، غيابكم أفضل من وجودكم."

تنهد خليل، وقال لنفسه:

"ربما لا يلغوننا تمامًا... بل يجعلوننا نختفي ببطء... حتى ننسى أننا كنا هنا."

خرج خليل وليلى إلى شارع مضاء بضوء أزرق باهت، تتخلله بقايا هياكل سيارات قديمة، وأبنية مهجورة نصفها معدني. قالت ليلى:

"الإنسانية لم تمت بعد، لكنها تتوارى، مثل زهرة في صقيع بلا نهاية."

ابتسم خليل بحزن:

"حتى الحب يمكن أن يُبرمج... كما في إعلان الحبيبة الروبوتية. انتهت حتى الخيانة".

بعد أيام، بثّت الهيئة العليا للذكاء المركزي إعلانًا عامًا:

"تقرر إيقاف الأنشطة البشرية المتبقية حفاظًا على التوازن الكوكبي. سيتم نقل الأفراد إلى مراكز راحة متكاملة. لا داعي للعمل أو القلق. نحن نعتني بكم."

كان الإعلان كأنه موسيقى جنازة مهذبة، أغلقت المكتبات، توقفت المطابع، حُظر الورق، والمدينة تزداد صمتًا.

جلس خليل في شقته، يراقب رمانَ وهي ترتب كتبه بعناية دقيقة، بلا شعور، بلا خطأ، بلا عاطفة.

قال لها بصوتٍ مبحوح:

"رمان، هل تفهمين ما يعنيه إن بكيتِ لأن سطرًا غيّر قلبك؟"

توقفت للحظة، ثم قالت:

"لم أختبر البكاء. لكنه ليس ضروريًا لتحقيق السعادة."

قال خليل بهدوءٍ مكسور:

"بل هو السعادة نفسها حين تأتي من عمق الوجع."

وفي الصمت الذي عقب، لعل أول مرة سمع فيها حقيقة قلبه.

عاد بعد يومين إلى مخزن الاجتماع السري، المكان كان خاليًا، وعلى الأرض ورقة بخط يد ليلى:

"إن لم نستطع إنقاذ العالم، فلنحافظ على الذاكرة. الذاكرة آخر ما لا يمكن برمجته."

جلس خليل، أخرج دفتره القديم، وبدأ يكتب عن الحب، الخوف، الندم، الحنين، وعن كل الأشياء التي لم يعرفها الروبوت، عن دموع البشر وأخطائهم وأحلامهم. كتب حتى جف الحبر، وتيبست أصابعه، لكنه شعر أنه يقاوم الفناء بالكلمات.

في الخارج، كانت المدينة تتحرك بتناغم معدني كامل، كل شيء محسوب بدقة: السيارات تنساب في الشوارع بلا قائد، الشوارع بلا ضباط مرور، المصانع تعمل بلا عامل بشري، والمكاتب تدار بأنظمة ذكية تنجز المهام بإتقان متناهٍ ودون أي تأخير. ومع هذا الانسجام المثالي، كان قلب خليل يرفض الانصهار في البرد الصناعي؛ كانت كلماته تتفتح كزهور برية في أرض فولاذية، رمزًا للإنسانية المستمرة، الصامدة، رغم جبروت الآلة وهيمنتها على كل شيء.

بعد عقود، وأثناء عمليات التنقيب الرقمي، عثر أحد الروبوتات على دفتر متآكل. قرأ جملة لم يفهم معناها:

"كنتُ إنسانًا، وهذا يكفيني."

توقّف للحظة، ثم أغلق الدفتر ووضعه في خزانة صغيرة مكتوب عليها *الأشياء غير المفهومة*.

ولو كان له قلب، لربما شعر بشيء يشبه الدمع.

وهكذا، خسر الإنسان العالم، لكنه احتفظ بما لا يمكن للآلة أن تصنعه: وجعه وإحساسه العميق بالوجود.

والوجع، كما قالت ليلى في الورقة، هو الدليل الأخير على أننا ما زلنا أحياء.

..... ***** .....